# تراثنا الفكرى واللغوى

للدكتور ابراهيم مدكور

١ — للحضارات الإنسانية الكبرى آثارها ومخلفاتها ، من أدب وفن ، وعلم وفلسفة. والحضارة الإسلامية من أعمق هذه الحضارات أثرا ، وأوسعها أفقا . انتشرت ثقافتها شرقا وغربا ، وامتدت إلى العالم القديم فى قاراته الثلاث. كتبت بعدة لغات : بين عربية وعبرية ، وسريانية أو فارسية ، وتركية وأردية ، فتراث الإسلام الفكرى غنى فسيح طويل عريض عَمَّر قرونا متلاحقة ، وأسهمت فيه شعوب مختلفة. وجّه إليه الدين أصلا ، وكان الاشتغال به عبادة ، وحفظه وتعهده قُرْبة تعددت ألوانه : فيه شرعيات ، ولغويات وعقليات .

وتحت كل شعبة من هذه علوم وفنون ، وتحت كل علم أبواب وفصول . ووضعت فيه بحوث ودراسات : مختصرة ومطولة ، متون وأصول ، شروح وحواش . تعليقات وتقارير .

نمت على مر الزمن وتنوعت أساليبها ومناهجها ويكفى للتدليل على هذا الثراء والنمو المطرد أن أشير إلى مثلين اثنين : أولهما « كتاب الفهرست » لابن النديم ، وثانيهما « كتاب كشف الظنون » لحاجى خليفة . وقد ظهر الكتاب الأول فى النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة ، وشاء واضعه أن يحصى ما أُلِّف أو ترجم إلى العربية منذ صدر الإسلام . وهو ورّاق يتحدث حديث خبير . وأسفر إحصاؤه عن عشرات العلوم والفنون ومئات المؤلفات والمؤلفين . ثم جاء الكتاب الثانى بعد الأول بسبعة قرون فتضاعف العدد عشرات ، بل مئات . وأصبحت الفنون نحو ٢٤٠ ، والمؤلفون نحو عشرة آلاف ، والمؤلفات نحو خمسة عشر ألفا ، وتتابع السير ، واطرد النمو ، وشهدت بذلك إحصاءات متلاحقة .

٢ — ولا سبيل لأن يعيش الفكر الإنسانى بمعزل عن السياسة يضىء معها حينا ويخبو حينا آخر .

يز دهر باز دهارها ، ويُبْلى بما يحل بها من ويلات ونكبات . وكثيرا ما قضت الحروب الداخلية

والخارجية على ما خلّف الفكر الإنسانى من نفائس وكنوز، ويكفينا أن نشير إلى غزو التتار الذى أهلك الحرث والنسل ، وحرمنا من مؤلفات لا نعرف منها اليوم إلا الاسم ، أو بعض ما نقل عنها فى مؤلفات معاصرة . ومن حسن الحظ أن الأمراء والعلماء كانوا يتنافسون فى اقتناء الكتب والمخطوطات ، وكان ينسخ من الكتاب الواحد عشرات المخطوطات ، وكثيرا ما أعيد نسخه فى عصور لاحقة .

وللوضع السياسى والخلاف المذهبى شأن فى تخير الكتب وجمعها ، فكان الفاطميون مثلا حُرّاصا على كتب الشيعة حرص السلاجقة على جمع كتب أهل السنة .

وأضحى لكل فرع من الدراسات مَظَان يبحث عنه فيها ، ففقه المالكية مَدِين فى حفظ أصوله لشمال أفريقيا ، ويرجع إلى الشام ومصر فى البحث عن كتب الشافعية .

ويعد اليمن اليوم أكبر مصدر لما بقى من مخلفات متأخرى المعتزلة . وأذكر أن المرحوم طه حسين استطاع يوم أن كان وزيراً للمعارف أن يرسل إليه بعثة كشفت عن بعض نفائسه ومن بينها كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار الذى لم تستكمل أجزاؤه حتى اليوم . ويوم أن آل النفوذ السياسى فى الإسلام إلى الدولة العثمانية اتجهت حركة جمع المخطوطات وحفظها نحو مكتبات استامبول الخاصة والعامة التى نأمل فى صدق أن يستكمل حصرها وأن ييسر أمر تصويرها والأخذ عنها .

٣ — وللتراث العربى شأنه فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، فهو ثمرة حضارة سادت العالم عدة قرون ، وهمزة وصل بين القديم والحديث ، أخذ عن الحضارات القديمة ما أخذ ، وأضاف إليها ما أضاف . احتفظ منها بأجزاء ضاعت أصولها ، ووجه إليها النظر فى التاريخ المتوسط والحديث . والتراث اللاتينى مدين دون نزاع للتراث العربى . بدأ يأخذ عنه منذ عهد مبكر ، فى القرن العاشر الميلادى . وامتد هذا الأخذ إلى عصر النهضة والتاريخ الحديث . وهناك قدر من مؤلفاتنا العلمية القديمة نفتقد أصلها العربى ، ولم يبق منها إلا ما احتفظت به الترجمة اللاتينية وعلى سبيل المثال نفتقد قدرا من أصول تفاسير ابن رشد على أرسطو ، فى حين نجدها مكتملة فى الترجمات العبرية واللاتينية .

واتجه الغرب مرة أخرى نحو الكنوز العربية فى التاريخ المعاصر ، وجدّ فى الكشف عنها والحصول عليها . وأعانه على ذلك الرحلة والسياحة ، ومكنه منه الاستعمار الذى فتح الباب فسيحا أمام الباحثين وهواة جمع النصوص النادرة ، وصاحب هذا أنّا لم نكن نُقَدِّر حقا تراثنا ، ولم نحرص على حفظه ، ولا يزال عُرْضة للسلب والتجارة غير الشريفة . وفى المكتبات العامة الكبرى بأوربا وأمريكا أقسام عربية عامرة بمخطوطاتنا ومؤلفاتنا القديمة وقد وقفت شخصيا على مخطوط منطق « كتاب الشفاء » لابن سينا فى « اليودليان » و « المتحف البريطانى » قبل أن أحصل عليه من

مكتبات استامبول.ولم يكتف الغرب بهذا بل قام منذ القرن التاسع عشر بدراسات ببليوجرافية جادة حاولت حصر المؤلفات العربية القديمة ، والتعريف بها وبمؤلفيها ومن أهم ما ظهر منها فى أخريات هذا القرن فهرس مخطوطات القسم العربى بمكتبة برلين ، ويقع فى عشر مجلدات ، وصنف تصنيفا تاريخيا دقيقا .

ثم جاء بعده ببضع سنين « تاريخ الأدب العربى لبروكلمان » ، الذى ظهر أولا فى مجلدين اثنين ، ثم ألحق به بعد مدة ثلاثة مجلدات أخرى .

وعول عليه الباحثون تعويلا يذكر طوال النصف الأول من هذا القرن ، برغم ما أخذ عليه من نقص أو قصور . وبدأ زميلنا الدكتور فؤاد سزكين منذ أربعين سنة تقريبا يتدارك على بروكلمان بعض ما فاته ثم انتهى به الأمر إلى وضع دراسة ببليوجرافية جديدة تشمل مخطوطات العلوم الإسلامية المختلفة منذ النشأة حتى منتصف القرن الخامس الهجرى . وتقع فى عشرة مجلدات ينصب كل واحد منها على علوم معينة ، وختمها بفهرس عام . ويأمل أن يتابع الشوط حتى القرن الحادى عشر . ومما يؤسف له أن هذه الدراسات كتبت كلها بلغات أجنبية ، ونأمل أن تجد سبيلها إلى العربية وبدأت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية منذ زمن مضى ترجمة بروكلمان ، ولكنها لم تتابع السير . وترجمت أخيرا أجزاء من كتاب سزكين .

٤ — وليس تراثنا اللغوى بأقل شأنا من تراثنا الفكرى . تعهدناه منذ عهد مبكر وتوالت الوفود على البادية ، لكى تنهل من الحياض الأولى ، وتأخذ العربية من منابعها وتنافس النقلة والرواة فى السماع والحفظ والرواية ، ينقلون نثرا وشعرا ، خطبا وقصائد حكايات ونوادر ، وشجعهم على ذلك الخلفاء والأمراء ، وأجزلوا لهم العطاء . وربما كان بينهم بعض المحترفين ، ولكن كان على رأسهم رواة ثقات وأئمة أعلام ، أمثال . الأصمعى ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وعلى هؤلاء عوّل اللغويون والمحققون . ومهد ذلك كله للتأليف المعجمى ، وليس ثمة لغة من اللغات العالمية الكبرى توفر لها ما توفر للعربية من معجمات ، وقد افتتح الخليل بن أحمد عصر المعجمات فى القرن الثانى للهجرة ، ووضع « كتاب العين » المشهور. وتنافس الباحثون من بعده فى وضع معجمات فى أحجام متفاوتة ، وفى تبويب متنوع . ولايكاد يخلو قرن بعد ذلك من ظهور معجم عربى ، وربما ظهر فى القرن الواحد عدة معاجم . وبين أيدينا من هذه المعجمات قدر لا بأس به ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوربية . ومنه ما لم ير النور بعد وتبذل جهود فى تحقيقه وإحيائه .

وقد رأى مجمعنا أن من واجباته الأولى أن يضطلع بشيء من هذا العبء ، إلى جانب معجماته الحديثة ، وبذل فى سبيله جهودا متلاحقه .

وفى الاثنى عشر عاما الأخيرة استطاع أن يسهم فى هذا الإحياء إسهاما ملحوظا فوضع نواة لمكتبة معجمية لم تكن رأت النور من قبل ، وتشتمل على ثمانية عشر مجلدا ينصب ست منها على « كتاب التكملة والذيل » للصاغانى ، وأربعة على « كتاب الجيم » للشيبانى ، وأربعة أخرى على « كتاب الأدب » للفارابى ، واثنان على « كتاب الإبدال » لابن السكيت ، « وكتاب الأفعـــال » للسرقسطى واثنان أخريان على حواشى ابن برى وهو يتابع السير ، وتحت يده نصوص لغوية قيمة جديرة بالتحقيق والإحياء. ولست فى حاجة أن أشير إلى أن تحقيقاته تجد سبيلها إلى العالم العربى بأسره ، ومن بينها ما نفدت طبعته الأولى .

هذا هو تراثنا الفكرى واللغوى وما أحوجه إلى الجمع والتنسيق ، والحفظ والتسجيل والتحقيق والنشر. وجدير بنا أن ننظم الجهود المبذولة لنشره وننسقها تفاديا للتكرار ، وأن نأخذه فى هذا النشر بالمنهج العلمى الدقيق ، وتراثنا العلمى بوجه خاص لم ينل بعد من عنايتنا ما نال من المستشرقين والباحثين الغربيين ، وهذا دون نزاع واجبنا ، وعلينا أن نؤديه . والسلام عليكم ورحمة الله .

**ابراهيـــم مدكور**
**رئيس المجمع**